دور يهود الجنوب المغربي في تجارة القوافل الصحراوية

محمد أرحو

لقد كان المغرب الأقصى من أهم النواحي المتوسطية التي اتجهت إليها الهجرات اليهودية عبر القرون، بالنظر لما كانت تلقاه المجموعات اليهودية من حرية في ممارسة طقوسها الدينية ونشاطها التجاري والحرفي. وإن وجود عدد كبير من اليهود في مختلف المدن المغربية، ليدل على أن بلادنا عرفت منذ القدم كيف تحسن التعايش مع مختلف الملل والنحل، حيث أوضح المغرب الأقصى دوماً هويته كأرض للتلاقي والتعايش عبر فترات تاريخه الطويلة، باستثناء فترات العنف والغضب التي كانت تميز اللحظات الخطرة، أثناء غياب النظام والسلطة، وفي فترات سقوط الدول.

لقد وجد اليهود من حسن المعاملة بالمغرب ما لم يجدوه في أقطار أخرى. ورغم أن المرابطين قد حدُّوا من نفوذهم الاقتصادي بالعاصمة، نظراً لاحتكارهم كلّياً، النشاط الاقتصادي بأغمات، فإنهم لم يمارسوا أي ضغط عليهم في الميدان الديني[1]. أما الموحدون فقد خيروهم بين الإسلام أو النفي، وألزموهم بارتداء زي خاص. ولم يلبث الحفصيون أن قلدوهم في طريقة معاملة اليهود[2].

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. الرباط، ص 66.

(2) R. Brunschivig: La Berberie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV siècle. Paris, 1940, pp. 403-404.

ولما استولى المرينيون على مقاليد الحكم، تحسنت وضعيتهم لدرجة أن بعضهم تقلدوا مناصب عالية في جهاز الدولة[1] فأصبحوا يسيطرون على الاقتصاد المغربي وبالتالي اقتصاد المنطقة وتجارتها الداخلية والخارجية، وخول لهم المرينيون امتيازات لم يسبق لهم أن نالوا مثلها بالمغرب من قبل، بل بلغ الأمر بعبد الحق (1428 ـ 1465) آخر ملوك بني مرين، أن ترك لكل من «هارون» و«شاويل» اليهوديين حرية التصرف في تسيير شؤون الدولة[2].

ولما ظهر السعديون على واجهة الأحداث السياسية، نهجوا سياسة التسامح تجاه الطوائف اليهودية، سينتج عن ذلك انضمام أفواج جديدة وضخمة من اليهود إلى المجموعات السابقة. ونتيجة مساهمتهم الفعالة في الحركة التجارية سيقع تطور محسوس، بعد انتشارهم في مدن وقرى المغرب من أقصى شماله إلى تخوم صحرائه.

* دور القوافل في تجارة القوافل الصحراوية

إن تواجد وتمركز اليهود منذ قرون في مناطق العبور من شمال إفريقيا إلى بلاد السودان الغربي (سوس ـ درعة ـ سجلماسة ـ توات)، شجع التجار اليهود «الراذانية» في القرن التاسع الميلادي في منطقة سوس على اختيار هذه الأخيرة كمحطة لترويج بضاعتهم عبر العالم[3]. كما أن أغلبية المصادر التاريخية تؤكد لنا أن يهود تافيلالت لعبوا دوراً في التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان، فكانت سجلماسة قبل القضاء على طائفتها اليهودية من طرف الموحدين حاضرةً للعلماء اليهود لها علاقات متواصلة مع المدارس التلمودية في مصر وفي شمال إفريقيا وإسبانيا[4]. كما كانت مدينةً لأغنياء التجار. ونذكر منهم على سبيل المثال «أبو زكري هاكوهن» الذي اختير في القرن

(1) D. Corcos: «The Jews of Morocco under the Marinides» in **Jewish Quarterly Review,** LIV, 1964, pp. 271-287; LV, 1965, pp. 55-81 et 137-150.

(2) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ. ج 2، ط. الثانية، الدار البيضاء، 1984، ص 63.

(3) V. Monteil: «Les Juifs d'Ifran» in **Hésperis,** XXXV, 1948, p. 12.

(4) H. Z. Hirschberg: Histoire des juifs d'Afrique du Nord. (en hebren), vol. I, p. 90.

الثاني عشر الميلادي وكيلاً لتجار شمال إفريقيا في القاهرة[1]. وهكذا يظهر أنه في تافيلالت مثل باقي المحاور التجارية في هذه الفترة أن اليهود كانوا يسيطرون على المحاور التجارية المهمة من بينها الطريق الرابط بين فاس وتافيلالت المعروف بـ «طريق السلطان»، حيث تمكن بعضهم وبفضل الاستيطان الطويل في نقاط هذا الطريق من امتلاك القصور القديمة مثل قصر «توذعا» وقصر «أسفلو»[2].

ولا بأس من الإشارة هنا بأنهم كانوا يقرضون بالفوائد التجار الذين يمارسون تجارة القوافل السودانية مما ساهم في تراكم ثروة يهود تافيلالت[3].

إلا أن هاته الوضعية المريحة سرعان ما ستعرف تراجعاً مع الدولة الموحدية، حيث تعيش الطوائف اليهودية وضعية التفكك مما سيحد بالتالي من أنشطتهم التجارية. لكنهم سيسترجعون حياتهم العادية بعد ظهور المرينيين على الساحة السياسية سنة 1269م[4]. ففي هذه الفترة أصبح ليهود هذه المنطقة علاقات متواصلة تربطهم مع إخوانهم في الدين بتلمسان[5].

وسيعاني يهود توات التي كانت مركزاً إشعاعياً إسلامياً على مناطق الجنوب ومستودعاً تجارياً بين تلمسان والسودان نفس معاناة يهود سجلماسة خلال الحكم الموحدي. ولقد كانت توات منطقة جد نشطة في القرن الرابع عشر الميلادي عندما كان محور تلمسان ـ توات ـ النيجر من أهم الطرق التجارية للقوافل الصحراوية[6]، حيث شكلت هذه التجارة ـ حسب «إسحاق برشيشت» (1326 ـ 1408) ـ النشاط

(1) S. D. Goitein, A Mediterranean society, vol. I. Economic foundations, University of California Press, 1987, pp. 191-192.

(2) P. Flamand: «Stastitiques sur la population israélite du Sud-Marocaine» in **Hésperis**, 1950, tome 39, p. 369.

(3) R. Caillé: Le Journal d'un voyage à Tambouctou et à Jenné dans l'Afrique centrale. Anthropos, Paris, 1965, p. 88.

(4) Ismaël Hamet: Les Mérinides. Paris, 1904, p. 38.

(5) M. Abitbol: «Juifs Maghrebins et le commerce transsaharien au Moyen-Age», Actes du Colloque. Jérusalem, 1982, p. 241.

(6) Ibid., pp. 241-245.

الرئيسي ليهود توات مما حمَلَ بعض رجال الدين اليهود في الجزائر على حل بعض المشاكل الدينية التي كانت تطرَحُها ظروف التجارة[1]. فعلى سبيل المثال طرحت إشكالية السير بالقوافل يوم السبت وهو طبعاً يوم «ديني» لديهم الشيء الذي حَدَا بـ «إسحاق برشيشت» أن يُصدر فتوى تسمح للقوافل بالسير يوم السبت شريطة الانطلاق قبل ذلك بثلاثة أيام على الأقل[2].

ومن جانب آخر، فإن يهود توات كانت لديهم علاقات جدُّ واسعة مع إخوانهم يهود تلمسان وسجلماسة ووهران[3]، مما يدل على أن اليهود في المنطقة كانوا ينسقون ويتعاملون فيما بينهم لإنجاح تجارتهم وبالتالي تحقيق أرباح هائلة. وسيراً على هذا النهج فقد ربط يهود فاس في عهد الحكم الوطاسي علاقات واسعة مع يهود الواحات السوسية من أجل احتكار تجارة هذا البلد.

إنطلاقاً مما سبق يلاحظ أن الغالبية العظمى من اليهود تمركزت إما في الحواضر الكبرى ذات الأهمية الاقتصادية، أو في المراكز التجارية، سواء منها الواقعة على مشارف طرق تجارة القوافل الصحراوية (تيدسي، تييوت بالسوس...) لكن هل معنى هذا أن العناصر اليهودية امتهنت التجارة فحسب؟ أم أن أنشطتها امتدت إلى مجالات أخرى. هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال النقطة الموالية.

*** الأنشطة الاقتصادية والصناعية لليهود**

بالنظر إلى الأنشطة الاقتصادية والصناعية التي مارسها اليهود في المغرب، يلاحظ أن صناعة المعادن النفيسة والنقود كانت من بين أنشطتهم الأساسية، حيث وظفوا يداً عاملة يهودية مهمة في صياغة المجوهرات[4]. وكما هو معروف اشتهر الصياغ اليهود بحذق وذوق ظلا معروفين منذ قرون.

---

(1) S. Bakchine: Les Juifs du Touat (XIV-XV). Paris, 1975-76, p. 97.

(2) M. Abitbol: op.cit., p. 245.

(3) Ibid., p. 245.

(4) ابن عسكر: دوحة الناشر. تحقيق محمد حجي، الرباط، 1977، ص 77.

أما فيما يخص ضرب السكة فنلاحظ أن اليهود اشتهروا في هذا الميدان وكانت لهم «دار السكة» في جميع المدن وبالخصوص في سجلماسة المدينة المفتاح نحو الصحراء، حيث جسدت طريق تجارة الذهب والملح نحو بلاد السودان.

ونسجل في بداية القرن السادس عشر الميلادي تواجد اليهود بكثرة داخل القصور الفيلالية في «تبعصمت» و«المامون»، حيث كان أغلبهم في هذه الأخيرة تجاراً[1]، وكانت هذه القصور تضرب السكة من الفضة والذهب. وبما أن هذه الأنشطة كانت تخضع للتعامل الربوي فقد جعل هذا منها في النهاية مجالات محتكرة فقط من طرف اليهود لا غير. وفي هذا الإطار يقول الحسن الوزان: «لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال إن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر رباً، ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل»[2]. وينسحب نفس الاستنتاج على تيدسي، حيث يقول أيضاً الحسن الوزان: «وفيها عدد كثير من الصناع اليهود كصياغين»[3]. غير أن نشاط اليهود الصناعي لم يقتصر، كما قد يتبادر إلى الذهن، على صياغة المعادن الثمينة وضرب النقود، وإنما تعداه إلى مزاولة مهنة الحدادة وما اتصل بها من صناعة المجارف والمناجل وصفائح الخيل، كما هو الشأن مع يهود آيت داود. وفي هذا العدد يقول الحسن الوزان: «في هذه المدينة عدد كثير من الصناع اليهود من حدادين وإسكافيين وصباغين»[4]. ففي حديثه عن تيوت بالسوس، يقول الحسن الوزان: «وفيها عدد كثير من

(1) يرى E. Laoust أن جزءً من سكان قصر طابيا، أمالو، نزروفت وإغيدن أوسمن هم من أصول يهودية، أنظر: «L'habitation chez les transhumants du Moroc central», Hésperis, XVIII, 1934, pp. 151-253.

(2) الحسن الوزان: وصف إفريقيا. تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1983، ج 1، ص 283.

(3) نفس المصدر، ص 119.

(4) الحسن الوزان: نفس المصدر، ج 1، ص 105.

الصناع اليهود»[1].

يتضح من خلال ما سبق أن اليهود بالمغرب الأقصى، مارسوا بشكل متفاوت كل المهن، من صناعات مختلفة وتجارة بشقيها الداخلي والخارجي. وهذا يعني أنهم ساهموا بشكل أو بآخر في تطوير اقتصاديات المغرب الأقصى.

وقد كان من الطبيعي أن يثير تعدد هذه الأنشطة وأهميتها ردود أفعال متعددة، سواء في أوساط التجار المسلمين أو في أوساط النخبة الدينية.

*** موقف الفقهاء من احتكار اليهود لهذه الأنشطة**

نلاحظ من خلال ما سبق أنه كان لليهود نفوذ مالي واقتصادي واسعين بسبب احتكارهم لحركة التجارة واستيطانهم بالمراكز التجارية التي تمر منها أو تنتهي إليها القوافل الصحراوية الرابطة بين شمال إفريقيا والسودان الغربي. هذا النفوذ لم يمر دون إثارة قلق الطبقات التي تلمَس أكثر من غيرها هذا التطور الخطير، لا سيما طبقة التجار المسلمين بفاس، هذا القلق سيبلور من خلال فتاوى دينية من ذلك ما سيصدره مثلاً الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني[2] خلال القرن السادس عشر الميلادي، حيث استنكر ما كان يحظى به اليهود من مكانة خاصة على اعتبار أن ذلك مخالف لتعاليم الإسلام، مما دفعه إلى كتابة رسالة في الموضوع[3] ضمّنها دعوةً إلى سائر الفقهاء، من أجل دعم موقفه إضافة إلى إجازة قتلهم والاستيلاء على أموالهم بل تعدى ذلك إلى الدعوة لِدَكِّ بيعتهم بتوات ومنعهم من بناء بيع جديدة. وسانده في ذلك فقيه تلمسان التنسي والإمام السنوسي[4] في حين عارضه قاضي توات عبد الله العضوني[5]

(1) المصدر نفسه، ص 117.

(2) نسبة إلى قبيلة مغيلة البربرية التي تقطن نواحي تلمسان.

(3) ابن عسكر: الدوحة، ص 80 ـ 96.

(4) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. طبعه وراجعه الشيخ محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1958، ص 253 ـ 254.

(5) المصدر نفسه، ص 253.

والشيخ ابن زكري[1].

ومع ذلك، فقد كان لفتوى المغيلي تأثير واسع في الوسط الاجتماعي كما كان لها التأثير نفسه في الصحراء والسودان، فوقع التضييق على اليهود ومنعوا من الإقامة في بعض الجهات[2]، مما سيجعل السعديين يرثون وضعاً متوتراً في الأقاليم الجنوبية الشرقية عند قيام دولتهم. وقد عمل السعديون على تصحيح وضعية اليهود في إطار الجهود الرامية إلى القضاء على جميع النزعات الداعية إلى إثارة الفتن وسفك الدماء، الأمر الذي أدى إلى ظهور أسرٍ يهودية ثرية اشتهرت في العهد السعدي بالمنطقة الجنوبية المغربية[3].

إلا أنه يلاحظ رغم هذا أن بعض أفكار المغيلي ظل صداها يتردد في كل أرجاء المغرب طوال هذا العهد[4]، حيث كان مثلاً عبد الله ابن أبي الطاهر الحسني في تافيلالت يرى في اليهود رأي المغيلي[5].

وفي كل الأحوال، فإن العصر السعدي امتاز بتسامح ديني، سواء في مراكش أو في الجهات التي يكثر فيها اليهود، فقد تعايش المسلمون مع اليهود من غير أي حرج، في ظروف السلم والاستقرار التي لم تكن مستمرة على كل حال[6].

ومما يدل على هذا التعايش، أن اليهود في عهد المنصور كانوا يشكلون مجموعة كثيرة العدد، حيث كانت مراكش تضم لوحدها حوالي ستة آلاف يهودي[7]. وكانت هذه الأخيرة طيلة قرون، مناراً تشع منه العلوم اليهودية على

(1) المغيلي: مصباح الأرواح. مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، ص 231.
(2) ابن عسكر: الدوحة. ص 96.
(3) محمد حجي: الحركة الفكرية... فضالة، الرباط، 1976، ج 1، ص 270.
(4) المصدر نفسه: ص 268.
(5) ابن عسكر: الدوحة. ص 97.
(6) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ. ص 323.
(7) المصدر نفسه، ص 323.

مناطق سوس، والأطلس، ومدن ساحل الجنوب الأطلنتيكي[1]. لكن مع ظهور بوادر ضعف الدولة السعدية ظهرت من جديد فكرة معاداة اليهود ومحاربتهم وكتب الفقهاء في هذا الشأن فتاوى ضدهم في سوس ومراكش والدلاء[2]. واحتد الخلاف بين فقهاء سوس عندما سمح الأمير أبو حسوس السملالي لليهود ببناء بيعة في مدينة إيليغ. وقد حاول بعض الفقهاء الموالين للأمير تبرير ذلك. لكن حجج خصومهم كانت أقوى[3]. ولحل هذا الخلاف اقترح أبو حسون أن يحتكم المتجادلون إلى كبير فقهاء سوس عيسى السكتاني، مفتي مراكش[4]. وجاءت فتواه قاضية بمنع إحداث متعبَّد اليهود في إيليغ باعتبارها بلداً إسلامياً.

ومما جاء في جوابه: «. . . رأيت أن الصوابَ فيها الفتوى بمنع إحداث أهل الذمة الكنائس فيها وبهدم ما بُنِيَ فيها بعد إحداثه لأن إيليغ من بلاد الإسلام، ولا شبهة فيه لأهل الذمة الطارئيْن عليه. . . فبناء اليهود فيها الكنائس معصية»[5].

بعد الجواب تم هدم الكنائس ومُنِعَ اليهود مما أرادوه. هذا التضييق على اليهود فيما يخص الجانب الديني لم تمتد آثاره وانعكاساته على أنشطتهم الاقتصادية، حيث ظلوا خلال هذه الفترة يشكلون فئة اجتماعية مميزة داخل المجتمع بممارستهم لمختلف الأنشطة الاقتصادية والتجارية والصناعية وكانوا أحسن حالاً بشكل كبير بالمقارنة مع اليهود المقيمين في أقطار أخرى. فحينما كانت الدول النصرانية ترى الواحدة بعد الأخرى، أنه من المناسب لها إخراج اليهود من بلادها، كان المغرب الأقصى على العكس من ذلك مأوى لآلاف اليهود الذين أخرجوا من ديارهم بعد أن تعرضوا لشتى أنواع الاضطهاد بواسطة محاكم التفتيش المتعصبة.

---

(1) Haim Zafrani: Mille ans de vie juive au Maroc. Histoire et culture, religion et Magie. maisonneuve, Paris, 1983, p. 13.

(2) محمد حجي: نفس المرجع، ص 271.

(3) محمد حجي: نفس المرجع، ص 271.

(4) الناصري: الاستقصا. دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 ـ 1955، ج 6، ص 79 ـ 81.

(5) محمد حجي: نفس المرجع، ص 272.